نظام فهرسة الكتب

بقلم محمد كيليطو

تفضل الاديب السيد محمدكيليطو من المكتبة العامة بالرباط ببحث قيم عن ترتيب الفهارس بالمكتبات نقتطف منه ما يلى :

ان فهرسة الكتب نظام ايجابي لكل باحث ، وابتكاره قديم جدا ، فقد عرفنا نشأته الحقيقية بعد ظهور مكتبة الاسكندرية واول مصنف لفهرسة الكتب من مجموعة هذه المكتبة هو كليماخوس احد تلاميذ « الفيلسوف ارسطو (384 — 322 م) » الذي قام بدور الاستاذية فى مدرسة معلمه بعدما غادر اثينا والتحق بالاسكندرية ليساعد بطليموس الاول المعروف ببطليموس سوتير Ptôlemée Sôter على تنظيم المكتبة التي اسسها هذا الملك بعد موت « الاسكندر الاكبر (356—323 ق . م) واهدى اليها ارسطو كتبه قصد ازدهارها وافادة روادها من كل طبقة فى مستوى العلم .

وكليماخوس الميتكر للفهرسة هو من مواليد الربع الثالث من القرن الرابع قبل الميلاد ويعتبر الرائد الاول لعلم البيبليوغرافية لما استخرج هذه الكتب من المجموعة الكبرى اي خمسها من خمسمائة الف كتاب .

ولما التحق بهذه المكتبة قام بتجريد الكتب اليونانية الخاصة بتاريخ اليونان وعلومه ولغته وكل ما كتب عنه بلغات اخرى .

ومن ثمة عرف الانسان اسلوب الفهرسة الذي اصبح يتطور وتنوعت اصنافه واهمها حتى البيبليوغرافية القومية .

والفهرسة ان كانت ظهرت قبل هذا العصر اي القرن الرابع ق.م فان واجب العمل قد فرضها بحكم الممارسة وعلى ضوء التجارب من خلال ما كان يتصدى من صعوبات لرواد المكتبة ومسيريها فى التاريخ القديم .

ومنذ ذلك الحين والمكتبة تتقدم بكيفية مجدية وبعمل ايجابي ومجهودات متواصلة فكلما ازدهرت المكتبة توسعت فهارسها ، وكل مستفيد يقدر اجتهاد المكتبي فى كل لحظة والمضطلع بهذه المهمة لا يتهاون لحظة فى انجاز العمل لكون الانتاج الفكري غزيرا منذ كان وطغيانه على المكتبة عتيد ومنهمر ودولاب الفهرسة لا يقف سيره ليلا ونهارا .

فمنذ ظهرت الطباعة والانتاج فى كل بلد ينصب بدون انقطاع لا من جهة طبع التراث القديم او تاليف الكتب الجديدة بل من البحوث والدراسات العلمية والتاريخية والدينية والفنية التي تصدرها الصحف والمجلات والنشرات .

وهذا الانتاج يتحتم ابرازه بالفهارس لكي يبقى حيا رائجا على بطائق الفهارس المتحركة فى عدة اصناف أولها على اسم المصنف والشارح والترجمان والمترجم له وثانيها على عنوان الصنف وثالثها على

الموضوع الفني والعلمي يرتب الاول والثاني على حروف المعجم والثالث « الاخير » في نطاق المجال العلمي بتناسق على التفريع الموضوعي المتسلسل .

ومثل هذا التنظيم قد ساد بالمكتبة القديمة في اسلوب بسيط كان يتطور كل يوم بحكم تطور حياة الانسان وتقدم أوضاع النظم .

كانت المكتبة القديمة قائمة من العصور البابلية الاولى وعصور السومريين وقدماء المصريين بكيفية تناسب ظروفها وان كان التاريخ محاها من صفحاته فان اكتشافات القرن الماضي قد تجلى منها ملحمة كلكاميس التي كتبها هذا الشاعر البابلي في القرن 32 قبل الميلاد والتي عثر عليها انجليزي بمدينة نينوي بالعراق سنة 1840 م كما عثر الاستاذ ليارد الانجليزي Lyard على المكتبة الهيكلية سنة 1848م بخرائب قصر اشور بانيبال بنفس المدينة وصانت هذه المكتبة تراثا عظيما بالكتابة المسمارية على الواح من الصلصال وذخائر اخرى ظهرت في ارض الكنانة بالكتابة الهيروغلوفية وما قبلها كالصوتية والصورية كانت تتراكم بدون فهرسة في كل زاوية موضوع من مواضيع العلم وهذه الطريقة هي التي كانت تمكن الباحث مما يريد عندما ينقب على الكتب مباشرة داخل المخازن .

ولما كثر الضياع عن طريق الاختلاس فكر رجال المكتبة في جعل حد لذلك بين رواد المكتبة وكتبها ووثائقها المصونة ، فأحدثت الفهارس التجريدية وكانت بمثابة مرآة ينظر فيها الباحث كل ما تطويه بطون مخازن المكتبة من بعيد فيشير بما اختاره الى المكتبي فياتي به اليه عاجلا .

وهذا الابتكار لعب دورا هاما في صيانة الكتب وتنحية كل تعب على الباحث الذي كان ينقب على الكتب المبعثرة والمتراكمة بعضها فوق بعض وقتا طويلا دون ان يصل الى هدفه الا بشق الانفس .

وعلى ضوء ما قام به كليماخوس طبقت كل مكتبة مشروع الفهرسة ومنهجه غير ان الكتب كانت تجرد كتابا بعد كتاب دون ترتيب عناوينها واسماء مؤلفيها او تمييز مواضيعها وهذا التنظيم البدائي بالنسبة الى الآن يعد من اكبر المشاكل لان الباحث لا يستطيع ان يدرك بسرعة ما كانت تتضمنه المكتبة من مؤلفات كاتب ما أو يلم بما صنف من كتب في مادة من مواد العلوم التي هو بصدد البحث فيها فلا ينال حظا منها الا بتكليف نفسه عناء مراجعة جميع القوائم المجرودة .

وظل هذا النظام قائما في العراق ومصر وسورية والفرس واليونان والرومان وبيزنطة ولم يطرا عليه اي تغيير حتى جاء الإسلام .

وفي النهضة الاسلامية تطور نظام المكتبة تطورا محسوسا حيث خصص لكل علم سجل ثانوي بعد تسجيل الكتب على سجلات بدون انتظام كما اشرنا اليه من قبل وكل سجل من سجلات المواضيع يختص بعلم من العلوم .

وهذا النظام ما زال مطبقا حتى في بعض المكتبات المتأخرة عن النظام الحديث رغم انه ظهر منذ اواخر القرن الثامن عشر وطبقته كثير من المكتبات المتقدمة وهو ترتيب بالارقام ومقاييس الاحجام واثبات الفهارس على بطاقات متحركة . اما مواضيع العلوم التي كان يجدها الباحث متراكمة في المستودعات وغير مكرسة بالفهارس فان هذه الطريقة كانت فيها نبذة في ترتيب الكتب لاختلاف الاحجام وتعدد انواعها اذ منها الضخم والكبير والمتوسط والصغير (والهزيل يبتلعه الكبير) زد على ذلك اللفائف والاوراق من كل صنف والالواح الخشبية والآجر وصفائح المعادن وورق البردي وسعف النخيل ورقاع الجلود والثياب الخ ...

وقد وضع الآن للعلوم قواعد فهرسية ايجابية فاصبح كل صنف من الكتب يرتب حسب نوعه وحجمه.

اما في عصور الاسلام الزاهرة فقد عرفنا الفهارس التي كانت ببيت الحكمة ببغداد ودار الحكمة بالقاهرة ومكتبة الحكم الثاني بقرطبة .

وقد انجز اول فهرسة في الاسلام ابن النديم سنة 377 هـ 987 م وهو في سن الخمسين وهو يعد من اول المصنفين له وقد اقتبسه من كتب وقائمات المكتبات التي تمت ترجمتها في عصر هارون الرشيد الخليفة العباسي وابنه المامون في دار السلام ببغداد.

ولفهرست ابن النديم شأنها في التاريخ فقد اعتمد عليها كل كاتب . وقد ذكر يوسف اسعد داغر في كتابه فهارس المكتبة العربية في الخافقين ص 7 و 8 ما يلي :

كتاب الفهرسة او فهرس العلوم لمؤلفه ابي الفرج اسحق بن يعقوب النديم البغدادي . الوراق استنادا على عدة مصادر أشار اليها بصفحة 7

وباختصار ما جاء فى المصدر المذكور « : ان هـــذا الكتاب يعد من اقدم كتب التراجم ومـــن افضلهـــا وضوحا وهو من جملة المخطوطات المصرية التـــي نزحت الى باريس والمخطوطات القسطنطينية الـــى ليدن فى القرن 17 م . وقد ظل المستشرق الالمانـــي فلوجيل Flugel بعدما جمع مخطوطات من فينـــه باريس وفينه ليدن عاكفا بالعمل على نشره مدة ربع قرن « مثلما استغرق ابن النديم فى تصنيفه 20 سنة»

لكن مات فلوجيل سنة 1870 قبل ان يطبعه فقام بعده بمواصلة العمل هرمان روديجير H. Roediger و.ا. موليز A. Muller فنشرت الفهرسة بالعربية فى ليبزيغ Leipzig اشتملت على 360 صفحة سنة 1871 والحق بها ذيل سنة 1872 فى 279 صفحـــة يتضمن التفاسير والتعاليق والاستدراكات بالعربيـــة والالمانية مختوما بفهارس الاعلام المذكورة بالفهرسة.

وهذا الكتاب هو من اقدم القوائم العربية واهمها، وعليه يعتمد دارسو آداب اللغة العربية والمولعون بمعرفة المؤلفات والمؤلفين . ثم زاد قائلا « ان ابـــن النديم اعتمد على من تقدمه من العلماء الذين وضعوا قوائم للمؤلفات والمترجمات والخزائن ورتب ابـــن النديم كتابه على عشر مقالات حافلة بالفوائد وهذا بيانها وترتيبها :

المقالة الاولى : على ثلاث فنون

الفن الاول وصف لغات الامم من العرب والعجم ونعوت اقلامها وانـــواع خطوطهـــا واشكال كتابتها .

الفن الثاني فى اسماء الكتب ، كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذاهب الفـــن الثالث فى لغة القرآن الشريف واسماء الكتب المصنفة فى علومه واخبار القراء واسماء رواتهم والشاذ من قراءتهم .

المقالة الثانية : ثلاث فنون ايضا فى النحويين واللغويين .

الفن الاول ابتداء النحو واخبار النحويين البصريين وفصحاء الاعراب واسماء كتبهم .

الفن الثاني فى اخبار النحويين واللغويين من الكوفيين واسماء كتبهم .

الفن الثالث فى ذكر طائفة من النحويين الذين خلطوا المذهبين واسماء كتبهم .

المقالة الثالثـــة فى الاخبار والآداب والسير والانساب
« الرابعة فى الشعر والشعراء
« الخامسة فى الكلام والمتكلمين
« السادسة فى الفقه والفقهاء والمتحدثين
« السابعة فى الفلسفة والعلوم القديمة
« الثامنـــة فى الخرافات والعزائم والسحر والشعوذة
« التاسعة فى المذاهب والاعتقادات
« العاشرة فى اخبار الكيمائيين والصوفيين مـــن الفلاسفة القدماء والمحدثين واسماء كتبهم « انتهى »

وقد اقتدى الاعلام واساطين العلم بهذا الكتاب واصبح كل عالم يفهرس فهرسته يذكر فيها كتبه التي صنفها او ملكها او اطلع عليها او قرا عنها او سمع بها يصف فيها كل ما راج بينه وبين اساتذته وتلامذته او بمن اتصل به رجال الفكر ويدون فيها ارتساماته ومذكرات انطباعاته عن ما شاهده فى الاجتماعـــات والاسفار او ما سمع فى المناظـــرات والمحاضـــرات ومجالس الشيوخ والعلماء والامراء والملوك والقضاة والولاة وكثير من الفهارس اشتملت على قطع مـــن العلوم ونبذ من التاريخ وتراجم الرجال .

وعلى منهج ابن النديم قامت المكتبة العربيـــة ففهرست كتبها على عدة اصناف بأساليب متنوعـــة فى سجلات حسب ما وصف ابن خلدون عن مكتبة الحكم الثانـــي بالاندلس وغيرها من المكتبـــات فى الشـــرق الاسلامي تصفها جل المصادر التاريخية والعلمية .